

## الشعر عند ما كولى

للأستاذ محمود الخفيف

بل إنه كان يتطلع بعين ملؤها الأسف الى تلك العصور التي فاتته ،  
عصور الكلمات البسيطة والتأثير الميق !  
ياخذ ما كولى في الدفاع عن رأيه هذا فيجرحه الدفاع أولاً  
الى العلاقة بين العلم والمدنية . ما حال الشعر في عصور التقدم ؟  
وكيف كان حاله في العصور السالفة ؟ وهل لتقدم المدنية تأثير  
مطرده فيه ؟

يقرر ما كولى أنه كلما تقدمت الحضارة ، انحط الشعر تبعاً  
لتلك التقدم ، ولهذا فانه اذا أعجب بتلك الآثار الشعرية التي جادت  
بها الأحيولة في العصور المظلمة ، فليس إعجابها بها قائماً على أنها  
وليدة تلك العصور ، كلا . فانه يمتدح أن البرهان القاطع على  
المعقوبة انما هو قصيدة عظيمة تظهر في عصر من عصور المدنية  
والتقدم ، في عصر من عصور الفلسفة والتفكير .

وان الذين ينكرون هذا المبدأ ليخضعون أنفسهم في رأيه ،  
ذلك أنهم ينظرون الى الفنون نظرتهم الى العلوم التجريبية  
والعقلية ، فيقيسون الجميع بمقياس واحد متخذين تقدم العلم  
والفلسفة دليلاً على تقدم الشعر والتصوير مثلاً ، وفات هؤلاء أن  
الفرق شامع بين الفن والعلم ، بين الخيال والتفكير ، بين  
الحلم والحقيقة ،

نسى هؤلاء أن العلوم تتقدم بتقدم العصور لأن أهل كل  
عصر يتدنون دراستهم من النقطة التي وقف عندها أسلافهم ،  
ومن ثم كان التقدم العلمي تدريجياً ، وكلما تقدمت العصور ، كان  
من أيسر الأمور على من رزق حظاً من الذكاء تحصيل العلم ،  
فان أى شخص غادى الآن ليستطيع أن يحصل من قوانين  
الرياضة في بضع سنين أضعاف ما استطاع نيوتن العظيم تحصيله في  
نصف قرن قضاه في الكد والتأمل .

ولكن الأمر على خلاف ذلك في الفنون كالموسيقى أو التصوير  
أو النحت ، وعلى الأخص في الشعر ، فان تقدم الانسان في  
الاختراع ، قد يساعد على تحسين الأدوات التي يستعملها كل من  
الموسيقار والنحات والمصور ، ولكن اللغة وهي أداة الشاعر  
تكون أكثر ملاءمة لفننه وهي في حالتها القطرية الساذجة .

هذه الآراء التي يعرضها ما كولى في تحديده العلاقة بين الشعر  
والمدنية ، تسوقه الى نقطة أخرى قريبة من هذه ، أعني بها

للكاتب الإنجليزي العظيم اللورد ما كولى طريقة افرد بها  
في عرض آرائه والدفاع عنها ، فقد أوتي بسطة في العلم ، واستاز  
الى جانب عبقريته بقريحة وقادة ، وذات كفة عجيبة ، هذا الى روعة  
في الأسلوب ، وسلامة في المنطق ، ولباقة في سوق المقدمات  
وضرب الأمثلة واستخلاص النتائج .

كتب رسالة عن الشاعر ملتن ، وضح فيها آراءه في الشعر  
وتناول الموضوع من جميع نواحيه ، ولقد أشار في رسالته الى بعض  
المسائل التي يختلف فيها شعراؤنا وأدباؤنا اليوم .

كان ما كولى شديد الإعجاب بالشاعر الكبير ، ولذلك  
أحفظه ما كتبه النقاد عنه وانبرى للرد عليهم في حماسة استتارت  
عبقريته وأيقظت قريحته . رأى هؤلاء النقاد يسلكون السبل  
المتوية للخط من قيمة الشاعر ، فبيناهم يسلمون في غير تحفظ بأن  
آثاره جديرة بأن تأخذ مكانها بين أعظم الآثار التي أنتجتها العقول  
البشرية ، اذا بهم يابون على الشاعر أن يتبوأ مكاناً بين حفول  
الشعراء كهوميير ودانتي وفرجيل وأضرابهم ، وحجبتهم في ذلك أن  
هؤلاء نشأوا في عهد طفولة المدنية ، فلم يكن لهم من المعارف مثل  
ما كان ملتن الذي نشأ في عهد مستنير وتلقى علماً منظماً ، واطلع على  
كثير من آثار المتقدمين ، ولكنهم على الرغم من ذلك قد تركوا  
للعالم آثاراً تجل عن المحاكاة ، فكانت شاعريتهم طبيعية تتجلى  
فيها الاصاله ، وتشتع منها العبقرية ، ولا يمكننا على ذلك أن نضع  
ملتن في صفهم ، بل إنه لينبئ علينا اذا أردنا الانصاف أن نحسب  
على ملتن ، عند قياس شاعريته ، كل ما أتبع له من ظروف طيبة .

يسرد ما كولى آراء خصوم الشاعر ثم يعلن في حماس ويقين  
أنه على الرغم مما يقولون يقرر أنه مامن شاعر قد اضطر أن ينال  
من الظروف أسوأ مما اضطر ملتن الى مثالبته ، حتى لقد كان  
يخيل الى الشاعر أنه خلق متأخراً عما كان ينبئ له بأجيال ، ذلك  
لأنه كان يحس أن شاعريته لم تستفد شيئاً من الثقافة التي تنفثها ،

يستخلص ما كولى من ذلك أن الرجل اذا مال الى التفكير والتحليل كان أقرب الى الفلسفة منه الى الشعر، واذا أسلس العنان لخياله وأحلامه ، كان الى الشعر أقرب منه الى الفلسفة ، وقل في الأمم مثلما تقول في الأفراد .

فالأمم كالأفراد ، تبدأ أولاً بالأدراك الحسى ، ثم بعد ذلك ترقى الى الأدراك العقلى أو المعنوى ، وبعبارة أخرى ، تبدأ أولاً بفهم الصور الجزئية ، ثم تتدرج منها الى الحدود أو النصوص العامة ، وعلى ذلك كانت لغة المجتمع الراقى لغة فلسفية ، ولغة المجتمع نصف المتمدنين لغة شعرية ، وان التطور الذى يطرأ على اللغة من تذييلها وتوسيعها واعدادها لمقابلة التقدم الفكرى ليمد شديد الخطر على الشعر عظيم الفائدة للفلسفة .

وعلى ذلك فانه بقدر ما تزايد معارف الناس وبقدر ما يزايد تفكيرهم ، بقدر ما يتصرفون عن الجزئيات ويقبلون على الأنواع ، وحينئذ يصلون الى نظريات راقية ، بينما فى الشعر لا ينتجون إلا أفكاراً سقيمة قوامها العبارات الغامضة ، بدل الصور الناطقة ، والحجج الجافة بدل الأحياء الرائجة ، أو بعبارة أخرى يكون قوام عملهم فى الشعر الصفات المجردة بدل الأشخاص والأرواح الحية .

نعم إن هؤلاء المفكرين قد يكونون أكثر من سبقوهم مقدرة على تحليل وفهم الطبيعة البشرية ، ولكن التحليل ليس من عمل الشاعر ، فعمل الشاعر أن يصور وليس من عمله أن يحلل أو يشرح ، والتحليل فى الفنون يذهب روعتها ، ويبطل سحرها ، وموقف الشاعر من الفيلسوف موقف المصور فى صالته من الطبيب أمام مشرخته ، كلاهما يعرف أجزاء الجسم ولكنهما لا يقصدان غرضاً واحداً ، بل ولا يركبان فى زورق واحد ، ولقد يفهم الشاعر التضائل العامة والطبيعة البشرية كما يفهمها الفيلسوف ، ولكنه فى تلك الحالة لا تؤثر عقيدته فى شعره إلا كما يؤثر علم المصور بنظام الدورة الدموية فى فنه اذا هو حاول أن يرسم تساقط دموع « نوبيا » أو توقد خد « أورورا »

ولو أن شكسبير مثلاً قد رضع كتاباً فى اللوازم التى تسيطر على سلوك الانسان لما كان من المحتمل بأى حال أن يجيد كتابه جيداً ، ولما كان من المحتمل أن يحوى من التحليل ومثانة الحجج مثل ما يحويه كتاب يخرج عالم من العلماء المعاصرين ، ولكن أى عالم لعمرى يستطيع أن يخلق « اياجو » نعم ! أى عالم يستطيع

الملاقة بين الشعر والفلسفة ، فالفلسفة من عمل العقل والتحليل والتحخيص والموازنة والاستقرار والاستنباط ، وتلك كلها أشياء تتقدم بتقدم المصور ، اذا فما موقف الشعر من الفلسفة ؟ يتساءل ما كولى هل حاشى واحد . وبعبارة أخرى هل يمكن أن يكون الشاعر فيلسوفاً والفيلسوف شاعراً ؟ وهى كما ترى نقطة ثار فيها الجدل بين كثير من الأدباء فى الشرق والغرب ، فبعضهم لا يجد غضاضة فى الجمع بين الشعر والفلسفة فى شخص واحد ، بل وفى موضوع واحد تناوله النظم ، ومن أجل ذلك تراهم يطلقون لقب الشاعر الفيلسوف على بعض الأشخاص .

ولكن ما كولى يرى أن الشعر والفلسفة شيان ، بل تقيضان ، والجهل بهذه الحقيقة فى زعمه جهل بمعنى الشعر و جهل بأغراضه فهو لا يعنى بالشعر كل كلام منظوم ، لا ولا كل جيد من النظم ، بل انه اذا أراد الشعر بمعناه الحقيقى ، ليستبعد كثيراً من الكلام المنظوم ، الذى ربما نال حظاً من الأبحاب فى مجال آخر ، وإنما يقصد ما كولى بالشعر ، تلك القدرة على الوصول بواسطة الكلمات الى ما يصل اليه المصور بواسطة الألوان ، ثم ذلك الجو أو ذلك السحر الذى يتزع الانسان مما يحيط به ويظير به على أجنحة الخيال الى وديان نسيحة مليئة بالرؤى والأطراف ، ثم ذلك التأثير القوى ، وتلك الحرارة أو ذلك الحماس المشوب ، الذى يجمل المرء طوع قلبه ، وان هو خالف فى ذلك منطق وقواعد فكره .

ذلك هو الشعر فى جوهره وطبيعته ، وعلى ذلك فان كثيراً من النثر الذى تتحقق فيه هذه الصفات ليمد من روائع الشعر ، فاذا ما أردنا الشعر فى الاصطلاح التزمنا النظم ، وبواسطة الوزن والقافية والمهارة فى التوقيع ، نستطيع أن نجتمع بين الشاعر والموسيقار ، كما جئنا بين الشاعر والمصور .

وشتان بين هذا وبين الفلسفة . نعم شتان بين عمل العقل فى التفكير والتحليل ، وبين اختلاج النفس بالأحاسيس وامتلاء الخيلة بالصور ، وحيثان القلب بالماطفة ، وامتلاء المحاجر بالدموع ، أو إشراق الوجوه بالفرح ، واهتزاز الهيكل كله بالموسيقى .

واذا كان الأمر كذلك فما أعجب الخلط بين الشاعر والفيلسوف فى موضوع لا يمكن إلا أن يكون واحداً من اثنين : فاما الى العقل وإما الى القلب !!

في الأدب الفرنسي

## ٦- الدوق دي لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

## فلسفة :

لما عجز لاروشفوكو عن تحقيق آماله وبس من ارضاء طموحه، صدف عن حياة الاجتماع الصاخبة، وانطوى على نفسه وحلها، واستعرض في ذهنه حوادث الماضي وأخلاق الناس الذين عاشهم ولا حظهم، ثم طلع عليهم بمواعظه القاسية الأليمة التي تظهر عواطفهم في صورة دميعة، وتجمل جميع أعمالهم مصدراً واحداً هو الأثرة. وليس عجيباً أن يقسو هذا الرجل في الحكم على نفسه وعلى الناس، وأن يقوده التفكير الى فلسفته اللاذعة، لأن التحليل لا يسبح التسامح، والغلو في الشك يؤدي الى حب النفس. وأعتقد أن آراءه في معاصريه وبيئته، تنطبق على الانسان في كل زمان، مع أن المصور الذي يرسم البحر أثناء العاصفة فقط، لا يبطئنا عنه إلا فكرة ناقصة الى حد بعيد. ولكي يكون الحكم على الجماعة صحيحاً، يجب ملاحظتها ودرسها في حالتها المدوية والشعب، ولكن لاروشفوكو رأى الناس في عصره يعملون مدفوعين بمصلحتهم الذاتية، كما هو الحال دائماً أثناء الاضطراب الداخلي والحروب الأهلية، فاستخلص من ذلك أن المصلحة الذاتية التي يسميها عثرة النفس أو الأثرة هي الباعث على جميع الأعمال الانسانية، وينبوع المواقف البشرية. ولا شك في أن الانسان

ألوانه، وتلاشت أطيافه، وهكذا ترى الفلسفة والشعر على طرفي نقيض.

تلك هي حالة آراء ماكولي في العلاقة بين الشعر والمدنية وبين الشعر والفلسفة. ولعلني أعرض على القاري في القريب رأيه في شاعرية ملان، فقد تعرض في ذلك إلى كثير من الأفكار التي تدور حول الشعر ولقته ومحسناته ومهامه.

محمود الطيف

مع قدرته على تحليل الشخصيات الى عناصرها أن يضم من هذه العناصر ما يريد ليخرج لنا في النهاية رجلاً مثل «اياجو» له خلق خاص وطبيعة خاصة وسلوك خاص؟

ولا يكتفي ماكولي بهذه البراهين التي ساقها للترفة بين الشعر والفلسفة، بل انه ليخطر الى أبعد من ذلك فيقول انه ربما كان من المستحيل على أي امرئ أن يكون شاعراً لا ولا أن يفهم الشعر ما لم يتجرد بعض الشيء من حدة عقله، أو ببارة أخرى ما لم يكن له نصيب من خمود الذهن، اذا صح هذا التعبير وجاز لنا أن نسمي تلك القوة العجيبة التي تملأ قلوبنا بهجة خموداً ذهنياً. نعم ان الصدق في الشعر أمر جوهري ولكنه « صدق الجنون » ذلك لأننا في الشعر نقيم الجدل الصحيح على القدمات الزائفة، فبعد أن نضع الفروض الأولى، يسير كل ما بعدها في توافق واتزان، ولكن قبول تلك الفروض يحتاج الى نوع من التصديق قد لا يتيسر لنا إلا اذا ألقينا عقولنا مؤثمتاً، ومن ثم كان الأطفال أكثر الناس خيالاً، فانهم يستسلمون الى الوهم، فاذا حاضرت أية صورة خيالية أمام أذهانهم عرضاً قوياً فانها تفعل بنفوسهم ما تفعله الحقيقة. وليس ثمة من رجل معها بلغت قوة احساسه بتأثر بقراءة « هملت » أو « لير » كما تتأثر فتاة صغيرة بقصة الذئب والجدة العجوز، ان تلك الفتاة تعلم حق العلم أنه ما من ذئب في انجلترا، وأن الذئب لا يتكلم، ولكنها على الرغم من يقينها هذا تصدق فتبكي فترتمد، وذلك هو سلطان الخيال على العقول التي لم يصقلها العلم أو على الأم في عهد طفولتها.

ولن يترك ماكولي أدلته دون أن يتوجها بتشبيه بديع، فهو يشبه الشعر بالفانوس السحري؛ فالشعر يرسم أطيافه في غميلة سحرية، أو كما يسميها ماكولي « عين العقل » كما يرسم الفانوس السحري صورته فتمتلئ بها العين الحقيقية « عين الجسم » وكما أن الفانوس السحري لا يؤدي عمله على الوجه الأكمل إلا في الحجرات المظلمة، فكذلك الشعر لا يؤثر تأثيره القوي إلا في المصور المظلمة، عصور العقول الساذجة الفطرية التي لم تسيرها الفلسفة والعلوم. وكلما انتشر نور العلم وتمكنت العقول من استنباط الأصول وتقرير القواعد وكشف النقاب عن حقائق الحياة، تضائل تبعاً لذلك عمل الخيال وترايل تأثير الشعر، وحالت